الطنطاوي «صور وخواطر»

- قراءة ثانية -

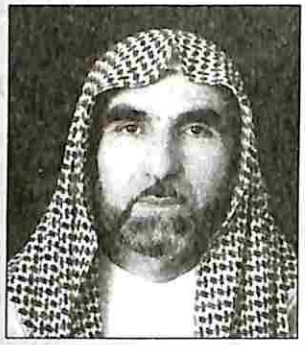

بقلم: شمس الدين درمش

منذ ثلاثين سنة قرأت هذا الكتاب،ولم تغب صورته عن خاطري. ولم أفقد شعور السعادة والمتعة بقراءته، وكان الحبل الذي شدني إلى مؤلفه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

وعندما توفي الشيخ - بعد أسبوع تقريباً من اطلاعي على الملف الذي أعدته جريدة الجزيرة - عقبت على أحد مقالاته مسجلاً مواقف تركت بصماتها في نفسي، كان هذا الكتاب يملأ ذاكرتي فعدت إليه أقرؤه قراءة ثانية.

صحبت الشيخ في رحلة سفر طويلة متواصلة من مكة المكرمة إلى الرياض ومنها إلى دمشق وحلب. رحلة ما أجملها وما أسعدها. وكيف لا أسعد وأنا في صحبة شيخ الأدباء وأديب الشيوخ، جلست إلى جانبه جلسة التلميذ المحب لأستاذه يرهف سمعه لكل كلمة يقولها، ولكل إشارة يبديها، يصعد معه «الترام» فيرى حالة الشيخ مع المتعلمين والعوام، ويقف به على شرفة منزله في المهاجرين يطل على الغوطة الغناء من خلف السنين، وهو معه في بيروت على البحر متأملاً فيما مضى والزمان الآتي، وفي الأعظمية في بغداد، وفي مصر مراراً وتكراراً، يعيش هموم شبابها وشاباتها.

ويأخذ الشيخ المربي بيد تلميذه ليدخل به في أعماق النفس وصراعاتها مع الشيطان، وفي آفاق العقل وأوديته مع الفلاسفة والعباقرة فيريه منهم طرفاً، ومن جنون عبقرياتهم طرفاً.. أما الحب والمحبون فله معهم ومعه وقفات.

وفي ديوان الأصمعي عالم خاص لا يبقى فيه للزمان ولا للمكان آثار، تخترق فيه الحجب والأستار فترى من فن المقال ما لا يدركه أهل الأخبار. رحلة مع الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- زادتني له حباً، ولآثاره شوقاً. وكان من أدنى الواجب أن أقدم هذه القراءة الثانية لكتابه «صور وخواطر».

هذا الكتاب في طبعته الرابعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م صادر عن دار المنارة بجدة، يقع في ١٨٨ صفحة، يضم مقالات متنوعة لا ينتظمها ترتيب الزمان من حيث النشر، ولا ترتيب المكان من حيث الكتابة، ولم يقسم إلى موضوعات وأبواب وفصول كما هو الحال في سائر الكتب، وقد بلغت مقالاته سبعاً وثلاثين مقالة.

وسجلت في بعض المقالات تاريخ نشرها مقروءة أو مسموعة بحيث يمكن تحديد طرفي الفترة الزمنية لهذه المقالات بثلاث وثلاثين سنة. والرقعة المكانية لها دمشق، وبيروت، وبغداد، والقاهرة، ومكة، ونظراً لتاريخ ١٩٦٨م، أستطيع أن أقول: إن النسخة التي قرأتها في المرة الأولى كانت أصغر حجماً، ثم أضيفت مقالات أخرى فيما بعد وخصوصاً مقالات ديوان الأصمعي وحلم في نجد وغيرهما.

محاور الكتاب

في القراءة الثانية لحظت بوضوح سير المقالات في عدة محاور هي:

١- النفس ومحاسبتها وآفاتها وتربيتها.
٢- النقد الاجتماعي.
٣- التحذير من المدنية الغربية.
٤- الحب، أنواعه،وآثاره.
٥- التعليم ومتاعبه واحترام المعلم.
٦- التوجيه الديني.
٧- النقد الأدبي

والنظر في محاور الكتاب قد يوحي بأن الكتاب أقله في مجال الأدب، وسائره في سواه من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والعلمية والنفسية، ولكن الأمر على خلاف ذلك.

إن كل كلمة من هذا الكتاب من صميم الأدب بأسلوبه، وصوره، وخياله، وعواطفه، وكل كلمة في الأدب فيه هي من صميم الإصلاح.

وللشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- آراء مهمة في الأدب وفنونه،وسنعرض لها عند الحديث عن محور النقد الأدبي.

وأسلوبه فيه أبعد ما يكون عن التكلف والتصنع، فهو يكتب كما يتحدث. بل لقد كانت بعض كتاباته أحاديث إذاعية، ففيها خفة العفوية، وقوة الصدق، ونصاعة البيان، وأشواق الروح، ومرح الفكاهة، وتدفق العاطفة، وانثيال الخواطر، ورفرفة الصور.

إنك عندما تدخل عالم الطنطاوي تنسى نفسك على زورقه السابح في مياهه المتدفقة، وتسير معه باتجاه التيار دون أن تعترضك عقبات الصخور، من وعورة الكلمات، وتعقيد المعاني، وخشونة الأسلوب. فلا تتركه لحظة حتى ينتهي بك في الصفحة الأخيرة،وتود لو أنك أعدت قطع المسافة من جديد لتعاود تأمل ما حولك مرة ثانية.

١- النفس[١]

وهو أطول المحاور وأغناها حديثاً وأكثرها تكراراً، وتكاد تجد في أكثر الموضوعات طرفاً منه، إضافة إلى ما خصه من موضوعات، وللشيخ وقفات مع النفس لمعرفة ما هيتها أو لأقل (فلسفتها) والتأمل في تقلباتها، وانفصال الإنسان عن نفسه فإذا هو نفسان بل أنفس، ومن ثم محاسبة هذه النفس في القيام بواجباتها نحو ربها ونحو ذاتها، ويغتنم لذلك مناسبات مختلفة، فانصرام عام مضى، وابتداء عام جديد مناسبة تكررت، وهو يقرر أنه في نهاية كل عام يحاسب نفسه على ما قدم فيما مضى، وعلى ما تحققت له من الآمال، وما فرط فيه من واجبات ويضرب لذلك المثل بالتاجر الذي يحصي بضاعته نهاية كل عام، ويصفي حساباته ليعرف ربحه من خسارته[٢]، ومن ثم يحث نفسه والآخرين على اغتنام الأوقات وملئها بالصالحات. فمقالاته (عام جديد، السعادة، تسعة قروش، القبر التائه، في الليل، اعرف نفسك، بيني وبين نفسي، بين الله والطبيعة، وحي صورة، يوم مع الشيطان) تدور حول فلسفة النفس وسعادتها، وآمالها وآلامها وسبل تحقيق ذلك، وهو لا يتأملها مجردة تأملاً فلسفياً بل يكون طريقة لذلك هو التأمل في الحياة نفسها وفي الطبيعة من حوله، وفي الإنسان ذي الروح والجسد صاحب النزوات والأشواق، في طريق يبدأ في الدنيا وينتهي إلى الآخرة.

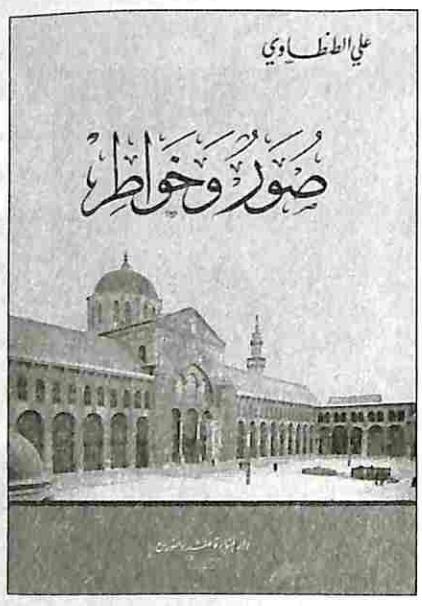

٢- النقد الاجتماعي[٣]

قلما يتناول الشيخ علي الطنطاوي موضوعاً فيغفل الجانب الذي يمس حياة الناس مباشرة بإيجابياتها وسلبياتها. فالإصلاح الاجتماعي المبني على أساس من الدين الصحيح هدف ملازم لمقالاته. حتى التي يكتبها في محور النفس يصب في هذا الاتجاه لأن إصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الفرد. وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح نفسه، فمقالات (تسعة قروش، في

الليل، هيكل عظمي، في الترام، بين البهائم والوحوش، لا أؤمن بالإنسان، وحي صورة، يا ابنتي، يا ابني، فلسفة العيد، كتاب تعزية) هذه المقالات تهدف إلى الإصلاح الاجتماعي من خلال تصوير الحياة بين الماضي والحاضر، وتغير سلوكيات النساء والرجال، وخروجهم عن الالتزام الشرعي، وعدم إنكار المنكرات، ونشر الفساد الاجتماعي في الصحف والمجلات والسينمات. وهو يدعو تارة إلى سلوك سبل الإصلاح الإيجابي كما في مقال «تسعة قروش» حيث يدعو إلى مد يد العون للفقراء ليس في ضرورياتهم بل في متع أولادهم وذلك أن الشيخ أدخل السرور في قلوب تسعة من أطفال الحي بشراء تسع لعب لهم، فارتسمت السعادة في وجوه الأطفال وراح الشيخ يتأمل هذه السعادة [٤].

وأبرز مثال لمقالاته في الإصلاح الاجتماعي «في الترام»[٥].

فالمقال الذي كان يريد أن يكتبه للإذاعة ويفكر فيه في الترام وجده في الحديث عن راكبي الترام واختلاف مشاربهم وسلوكياتهم، وأن الترام صورة من هذا المجتمع فتجد فيه الرجل والمرأة، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والمتعلم والجاهل، وهو يمثل طباع البلد الذي فيه.

كان الوقت بارداً والهواء يندفع من الباب فيحاول كل من الشيخ نفسه، ورجل، وامرأة، وشاب عريض المنكبين مفتول الشاربين أن يغلق الباب فلا يستطيع لأن كلا منهم حاوله بمفرده، فيرى في ذلك صورة من صور تفرقنا تمثلت في محاولة دفع ضرر يشعر به كل واحد ويحاول دفعه منفرداً فيخيب، ثم ينقل مجموعة من المظاهر السلبية من راكبي الترام.

ويلخص الفكرة قائلاً: «إن الترام يكشف أخلاق الناس وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه والحسن فيتعلمه، ويستمتع الملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول الفيلم البشري المعروض عليه»[٦].

٣- التحذير من المدنية الغربية

هذا المحور يمكن تصنيفه في الإصلاح الاجتماعي، لكني آثرت إفراده لخصوصية الموضوع، حيث يتبين لنا موقف الشيخ من هذا الوافد الغريب على مجتمعاتنا.

وقد أفرد عدة مقالات حول هذا المحور من أبرزها: «إلى أخي النازح إلى باريز، أعرابي في الحمام، أعرابي في السينما، لا أؤمن بالإنسان، وحي صورة». فمقال: إلى أخي النازح إلى باريز[٧] أنشأه الشيخ عندما ودع أخاه الدكتور عبد الغني مبتعثاً إلى باريز لدراسة الرياضيات، وعاد بشهادة الدكتوراه، وكان أول سوري يحصل على هذه الشهادة. ففي هذه الرسالة يزود أخاه الذي يغادر بلده الملتزم بالسلوك الإسلامي إلى باريس بنصائح يحافظ بها على نفسه،، حيث يضيع هناك كثير من الذاهبين فيأتون بورقة تحمل شارة الحصول على العلم، ولكنهم يفقدون دينهم.

حتى إنه ليقول له: «وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر احزم أمتعتك وعد إلى بلدك، وخل السوربون تنع من بناها، وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق»[٨].

٤- الحب

خص الشيخ علي الطنطاوي له مقالاً بعنوان «في الحب»[٩] وعرج عليه بعدة مقالات مثل (القبر التائه، مجانين، يا ابنتي، يا ابني، حلم في نجد، كتاب تعزية). إذ تحدث فيها عن الحب بمعناه السامي وبمعناه الهابط، وتحدث عن الحب العذري عند الشعراء، وعن الحب عند علماءالنفس، وعن حب الطبيعة، وعن حب النفس، ويحذر المرأة في مقال (يا ابنتي) من دعاوي الحب العفيف الذي يزعمه دعاته، قائلاً: إن النظرة الأولى تعطي الإحساس بالجمال، والثانية تعطي الشعور بالحب، وهذا لابد أن يؤدي إلى اجتماع الذكر والأنثى، ويدعوها إلى صيانة نفسها، كما يدعو في مقال (يا ابني) إلى مراقبة الله والتقوى وضبط النفس بوسائله الشرعية إذا لم يجد الشاب وسيلة إلى الزواج الشرعي.

٥- التعليم

في مقالة (زورق الأحلام)[١٠] يعدد الشيخ علي الطنطاوي أسماء المدارس الأهلية التي علم فيها في دمشق وهي (الأمينية والكاملية والجوهرية، والتجارية). ثم صار معلماً في ظل الانتداب تحت الظروف المعيشية القاسية، ويصطدم مع الحاكم المستعمر فينقل في أقل من ثلاث سنوات بين خمس من القرى يقول الشيخ: (وآذيتهم بقلمي ولساني فتركت الشام وسافرت إلى العراق، وكان لي في العراق إخوان، وكان لي تلاميذ، منهم من صار رئيس جمهورية[١١]، .. ومنهم من لست أحصي ممن صاروا وزراء وصار منهم كبار القضاة، والقادة والضباط. ما كان أحلى أيامي في العراق. وصرفتني موجة أخرى إلى لبنان، فعملت في بيروت سنة ١٩٣٧، وصار تلاميذي فيها أساتذة في الجامعة، وناس من كبار الناشرين وأصحاب المجلات، وصار منهم رئيس القضاءالشرعي، ومنهم

عبدالغني الطنطاوي

الشاب[١٢] الصالح الذي سرني وفرح قلبي أن سمعت من أيام نبأ انتخابه بالاجماع مفتياً للبنان»[١٣].

ويذكر طرفاً من أخبار زملائه ومدرسيه ومدير المدرسة وكان من أساتذته الأجلاء سعيد مراد شيخ المعلمين ومدير الثانوي، والأستاذ حسني كنعان،وجميل مراد، والشيخ محمد النابلسي، وذلك في المدرسة السلطانية الثانية يومئذ وقد دخلها من الصف الرابع بعد أن كان في الصف الخامس في المدرسة التجارية[١٤] وكان من خبر الشيخ علي الطنطاوي مع أستاذه سعيد مراد ما حكاه قائلاً: «ومرت أيام طوال وكنت يوماً على قوس المحكمة، وأمامي من المحامين والمتقاضين عشرات وعشرات فلمحت من نافذة القاعة الأستاذ (سعيد مراد) واقفاً في صحن الدار مع من ينتظر من الناس، وقد أحنت الأيام ظهره وأرعشت يديه، وسألته عما يأمر وأخذته من يده، فقلت لمن كان في المحكمة: هذا أستاذي وأستاذ الشام وأنا أستأذنكم في أن أؤخر دعاواكم لأقضي حاجته، فكانوا في عجلة من أمرهم، فلما رأوا ذلك قالوا جميعاً: نعم ونحن راضون، فأقعدته على كرسي، وانطلقت أحمل أوراقه بنفسي، فرأيت دموعه تتساقط من خلال لحيته البيضاء[١٥]»

هذا هو الشيخ علي الطنطاوي معلماً يتفانى في تعليم تلاميذه، وهذا هو تلميذاً يتفانى في خدمة معلميه، ويقبل يده على ملأ من الناس وهو قاضي محكمة النقض!!، وله مواقف أخرى يضيق المجال عن ذكرها.

٦- التوجيه الديني

أما نقده الديني فيتناوله من جهة التحليل النفسي أكثر، ويكشف عن كثير من الممارسات الخاطئة لدى الدعاة أو المتدينين مما يلبس الشيطان فيه على الناس، وذلك من قبيل ما وضحه ابن الجوزي في تلبيس إبليس، أو ابن قيم الجوزية في مصائد الشيطان، فيتحدث عن رمضان، وعن الصلاة، وعن المشاعر التي تعتري المرء في عبادته. وأبرز مثال لهذا المحور مقالان وهما: «رمضان، ويوم مع الشيطان».

في حديثه الإذاعي «رمضان» يوازن بين رمضان يومه، ورمضان أمسه قبل أربعين سنة، في ذاكرته وإحساسه وقلبه فينزل إلى شوارع دمشق وأسواقها ومساجدها وأحيائها فلا يجد شيئاً مما كان يعرف ويرى تناقضات صارخة أمامه فلا رمضان يعرف دمشق القديمة ولا دمشق الجديدة تعرف رمضان.

«أما رمضان الجديد فلا تعرفه هذه الشوارع الجديدة، والأحياء الحديثة،ولم يعرف بعد الطريق إليها، ودمشق القديمة لم يعد يستطيع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوءة بالنائمين، والمتحدثين والمدرسين الجاهلين، والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين، والصائمون تسوء أخلاقهم في رمضان من الجوع وشهوة الدخان،والشياطين تصفد في رمضان ولكن الفساق ينطلقون عاملين كما كانوا يعملون قبل رمضان»[١٦].

رمضان نور على المآذن، ونور في القلوب، رمضان صوم عن الطعام، وصوم عن الحرام... وإن كانت الدنيا للتناحر والخصام، فهذا الشهر للحب والوئام»[١٧].

٧- النقد الأدبي

كان الشيخ علي الطنطاوي ناقداً حاضر البديهة مع استطراده، يحب النكتة اللطيفة، والدعابة الظريفة مع حزمه وجده، وطرائفه وفكاهاته ذات مغزى عميق.

فالطرائف عند الشيخ ثوب خفيف مشوق يقدم فيه المعاني العظيمة خفيفة الوقع على النفس فيبلغ بذلك ما يبلغه الواعظ الجاد الذي يزلزل القلوب ويهز النفوس. أما مقال «ديوان الأصمعي»[١٨] الذي وسمه بعبارة «للتسلية والأحماض». ففي تسلياته وأحماضه أنواع من النقد شتى اجتماعية وسياسية ودينية وأدبية. ولعل الأدب هو الغالب، وفيه يخلط أسماء المعاصرين بالقدماء، ويلغي الزمان والمكان، فيقدم مقالاً حافلاً بالمعاني العميقة، والإشارات اللماحة السريعة لا يفهمها إلا من كان مطلعاً على العلوم والآداب ويعرف في الأشخاص من هو معاصر ومن هو قديم. وأنقل من مقدمة المقال نموذجاً : «قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء لم سمي أحمد بالشوقي؟ قال: لقد سألت عن هذا جدي أبا العلاء (يعني المعري) قلت:

وهو غير أبي علي المصري. فقال: سمي بذلك لأنه أكثر في شعره من ذكر الشوق. قلت: فلم لقب إبراهيم بالحافظ؟ قال: لكثرة حفظه الحديث!.

قال وحدثني إبراهيم المازني عن جده أبي عثمان المازني، أنه قال: لقد لقيت من الحفاظ من لا أحصي، فما وجدت مثل الحافظ إبراهيم. قلت: فما بلغ من حفظه؟ قال: إنه كان يحفظ أيام الأسبوع، وشهور السنة، ويعد الخلفاء الراشدين لا يغيب عن ذهنه أحد منهم!

قال إبراهيم بن عبد القادر المازني: فعجبت من ذلك ورويته في كتابي (قبض الريح في أخبار رواة الصحيح).

قال: والمازني لم يكن من بني مازن، ولكنهم ادعوه، وسبب ذلك أنهم سمعوا قصيدته المشهورة:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

فأعجبتهم، فردوا عليه إبله. وأكرهوا بني اللقيطة على تقبيل يده، وسؤاله الدعاء. قلت: وزعم أبو عبيدة أن اللقيطة أمهم. والصحيح أن «اللقيطة» قصة مطبوعة في مصر. وهكذا يمضي الشيخ في هذه المقالة الأدبية النقدية العجيبة في ثوب الطرائف واللطائف حتى يكاد القارئ يبتسم مع كل جملة للنقد اللطيف في ثوبه الظريف.

وهاجم توفيق الحكيم بخصوص كتابه (حماري قال لي) فيما سمي بين الأدباء بحمار الحكيم على سبيل الإضافة أوالصفة يقول الشيخ الطنطاوي «قال الأصمعي: وكان حمار

توفيق الحكيم

هذا من كبار الحكماء، ولكن أهل مصر اطرحوه انتصاراً منهم للقفطي، فلم يذكره إلا رجل من أبناء عمومته يقال له توفيق الحكيم.

قال النووي: وتوفيق الحكيم وضاع لا يقبل له حديث، ذهب إلى قرى مصر نائباً في الأرياف فأهمل عمله وخان أمانته، وصار يفكر في الرقص والغناء، وهو على كرسي النيابة في المحكمة، والقاضي ينتظر مطالعته، والظنين يرقب ما تنفرج عنه شفتاه، فلما أفاق، زعم أن نومه معجزة، وأنه كان مع أهل الكهف.

قلت: وكان يكتب في القهوات وعلى أرصفة الشوارع ويزعم في «الرسالة» [١٩] أنه يكتب من البرج العاجي»[٢٠] ففي هذه الفقرة انتقد الشيخ توفيق الحكيم في كتابيه (حماري قال لي) و(يوميات نائب في الأرياف)، وطعن في سلوكه وأسلوبه في الكتابة.

وانتقد الشيخ الطنطاوي في «ديوان الأصمعي» د. طه حسين فسماه طه بن الحصيني، و(الحصيني) حيوان يشبه الثعلب، وفيه إشارة إلى مكره الفكري ومخادعته وسرقته لأفكار المستشرقين ونشرها على أنها له.

ومن المقالات التي أنشأها في النقد الأدبي (الأعرابي والشعر). وهو المقال الثالث الذي بناه بأسلوب القصة المحكية على لسان (صلبى) البدوي بعد مقاليه أعرابي في حمام،وأعرابي في سينما، فهنا يدله (صلبى) على أعرابي لم تخالط العجمة لسانه، ولم يخالط المدنية الحديثة، حيث يكتشف خلال حكم الملك عبد العزيز - رحمه الله- قبيلة (السوالم) العربية الذين يتكلمون الفصحى كما كان في العصر الأول، ويحضر شيخ القبيلة إلى السفارة السعودية في دمشق فيدل (صلبى) الشيخ علي الطنطاوي إليه لكونه من المعنيين بالشعر والأدب، فيجتمع الطنطاوي بشيخ السوالم ويتحاوران في الأدب والأدباء قديمه وحديثه.

ومن مقالاته التي أنشأها في النقد الأدبي مقاله «نداء إلى أدباء مصر» يشيد فيه بأسلوب جبران مع ما فيه من مخالفة لقانون اللغة وقواعد العربية «لما حمل من الصور البيانية، والمجازات المستحدثة، والتشبيهات التي لا نظير لها، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة، لأن علماءها لم يقرؤوا مثلها، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حي، وخيال قوي، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي فيكون نادرة الأساليب ومفخرة الأدب، وهيهات»[٢١].

غير أنه يهاجم مضمون أدب جبران هجوماً عنيفاً ويطرح به أرضاً، لأنه يدعو إلى الرذيلة ويمجدها ويقدم الآثام في ثوب من الأدب المزخرف الذي يغوي الناشئة.

وينكر أشد الإنكار أن يكون الفن في تزيين الرذيلة فيقول: « إن الذي أعرفه أن الفن هو الذي يبحث عن «الجمال» بحثَ العلم عن «الحقيقة» وأنه يدرك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل، فمن قال إن الجمال لا يكون إلا في الفحشاء والمنكر؟[٢٢].

«إن من كانت هذه مقالتهم لم يأتوا بجديد إلا أنهم لم يسموا الرذيلة رذيلة ولا الفحش فحشاً وإنما سموه فنا، والجنون فنون»[٢٣]

أما الأدب في رأي الشيخ فله غاية وهي «تهذيب الطباع وصرف العواطف إلى الخير وتنبيه الضمائر الغافلة، وإيقاظ الهمم والمروءات وما إلى ذلك مما يكون منه نفع للناس[٢٤] ومن ثم يوجه نداءه إلى أدباء مصر قائلاً: «يا أدباء مصر: إن العالم العربي ليسمع منكم ويقتدي بكم فإن أنتم لم تسلكوا به سبيل الإصلاح وتدلوه على طريق الخير كان عليكم أكبر الوزر»[٢٥].

ويدور مقاله «نحن المذنبون» في المحور نفسه، إذ ينحي باللائمة على كتب الأدب التي تنشر الرذائل بصنع الكلام الجميل،ويتبرأ من هذا النوع من الأدب قائلاً: «وأنا أديب، ولكن إن كان هذا هو الأدب فاشهدوا علي أني طلقت الأدب طلاقاً لا رجعة فيه.. إن كان هذا هو الأدب فلعنة الله على الأدب.. لعنة الله على الشعر الجميل والوصف العبقري إذا كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والفضيلة والعفاف»[٢٦]

ويسلك عدداً من الأدباء في هذا السلك من عرب وعجم، من المحدثين والقدماء مثل بيرون، وجبران وبودلير وبشار وأبي نواس وبلزاك وإسكندر دوماس ثم يقول «وشر من هذه الكتب كلها، كتاب «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم لأنه دعوة صريحة للعبث بالأمانة الزوجية، وأن تشرك المرأة حبيبها مع زوجها في جسدها»[٢٧].

ويذكر واقعة طريفة لهذا الكتاب، وذلك أنه كان في عام ١٩٤٥م في مصر حيث أقيم له حفل تكريم، وكان من المتكلمين في الحفل «الشاب العالم الصالح عبد الرحمن الباني[٢٨] .. وكان طالباً في الأزهر فألقى خطبة عاب فيها على الأدباء المسلمين سكوتهم عن إنكار منكرات النشر، وضرب المثل بهذا الكتاب، وبلغت به الحماسة أن طوح به فألقاه عليَّ من فوق المنبر، وقال: خذ.. انظر ماذا يكتبون وأنتم نائمون؟ وأصابني الكتاب بضربة على وجهي، ولكني لم أغضب، ولم أردد عليه مثلها بل احتملتها صابراً لأن الحق كان معه! لأننا نحن المذنبون»[٢٩]

وفي مقاله (أنا والإذاعة) يعيب أن يكون الأدب ساحة لكل واحد يحمل قلماً فيكتب به ما يريد « وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى: كل يدعيه، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة، ويجد صفافاً يصف له حروفه، وصاحب جريدة ينشره، فهو كاتب بليغ، وكل من يأتي بلفظ موزون، أو شبه موزون فهو شاعر مفلق، وكل من يحفظ خبراً عن أبي تمام والمتنبي أو هوغو ولامارتين، أوشكسبير وملتون، فهو أديب أريب، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أوبباطل فهو ناقد محق. ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام،ويتكلم كما يتكلمون، ففكر تفكيراً غير آدمي وتكلم كلاماً ليس بإنساني، فهو شاعر رمزي، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي فالقراء جاهلون رجعيون جامدون»[٣٠].

فهذا هو شيخ الأدباء، وأديب الشيوخ علي الطنطاوي، كل كلمة يكتبها، وكل عبارة يصوغها، وكل فكرة يطرحها يهدف بها إلى غاية الإصلاح.. إصلاح الإنسان على أساس من الدين القويم، واقرأ ما شئت فلست بواجد عنده العبارة الجافة ولا الأسلوب الجافي، ولا الفكرة الغامضة. فهو مع الناس كنفسه، وسره كعلانيته، ووعظه كأدبه، وأدبه مستمد من البيان القرآني والهدي النبوي. سقى الله مثواه بفيض الرحمات، وأسكنه فسيح الجنات.■

الهوامش:

١- للمؤلف كتاب بعنوان: من حديث النفس.
٢- صور وخواطر، مقال: عام جديد، ص ٥.
٣- للمؤلف كتاب في سبيل الإصلاح.
٤- تسعة قروش، ص ٢٢.
٥- ص ٩٩
٦- في الترام ص ١١٢
٧- ص ٤١
٨- ص ٤٦
٩- ص ٢٠٩
١٠- ص ٢٣٣
١١- عبد السلام عارف -رحمه الله.
١٢- الشيخ حسن خالد -رحمه الله.
١٣- ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
١٤- ص ٢٦٤
١٥- ص ٢٦٥
١٦- ص ١٤٦
١٧- ص ١٦٣.
١٨- ٢٢٢ - ٢٢٣.
١٩- مجلة الرسالة كان يصدرها أحمد حسن الزيات.
٢٠- ص ٢٢٦.
٢١- ص ١٩٧
٢٢- ص ١٩٨ - ١٩٩
٢٣- ص ١٩٩
٢٤- ص ١٩٩
٢٥- ص ٢٠١
٢٦- ص ٢٠٣
٢٧- صارمفتشاً للتربية الدينية في وزارة المعارف السورية.
٣٨- ص ٢٠٥
٢٩- ص ٢٠٥
٣٠- ص ١٧٧